بقلم نصرالله واسد نصرالله

اراء

تيّار الفساد الجارف المتأتي عن مؤلفات الخلاعة وكتب المجون ، ماذا علينا ان نفعل ، نحن الكاثوليك ؟ اتصمت ام نرفع اصواتنا بالاحتجاج باسم الديانة وباسم الضمير ؟ فاذا صمتنا ، استشرى الشرّ وعمّ وباله ، وجثم مكيال الرذيلة حتى يغمر الارض. واذا احتججنا ، أجابنا اعداؤنا ، كما اجاب البرانيّ موسى في سالف الدهر : « من اقامك رئيساً علينا ؟ فالادب حرّ ، وانما انتم تعترضون علينا باسم ديانتكم والحكم . فديانتكم تزدرينا ، والحكم لا نعبأ به.»

فيخيّل لنا اننا بين قياس ذي حدّين ازاء مناصري الشرّ ، الذين ، تبعاً لفولتير ، يرددون : « لنسحق الرجس » ؛ والذين يقولون ان الفنّ حرّ لا يُضبط بقيد ، ولا يحتجّ ، ليس باسم الله وهم لا يعتقدون به ، لكن باسم الحقّ ، باسم الفنّ نفسه . وبعبارة اصرح ، نعلن ان الفنّ ليس كما ارادوه ، بل نقول :

١ً يجب على الفنّ ان يخضع لغاية الانسان السامية.

٢ً لانه ان تُرك وشأنه ، هوى بصاحبه الى وهدة الفساد . (نستدل على ذلك من طبيعة الفنّ نفسه ومن البيّنات التاريخية).

٣ً بل اصبح آفة على نفسه.

وبياناً لصدق ادلتنا نعوّل في هذا البحث على لمع من اقوال خيرة الرجال ، ليس من كاثوليك فحسب ، بل من كفرة ايضاً.

* * *

اولًا — هل من علاقة بين الفن والادب — ونزيد بالادب مجموع الفنون الاخلاقية — وما هي ؟ قد انكر البعض وجود هذه العلاقات زاعمين ان كلًا من الفن والادب يشغل حيزًا خاصاً ، فكما ان الاديب او الاخلاقي لا يعنى في البحث عن فنون الجمال وشرائط الملاحة ، هكذا الفنّان لا يخل بالاخلاق واصول السادات . فالجمال هو خير الفنّان ، وغاية الفنّان هي الفنّ نفسه . وعندهم ان الفنّان طليق ، يكتب ما يشاء ، ويصوّر ما يريد ، ويمثّل ما يستحسن ، على شريطة ان يكون لعمله مجلىً خارجي جذّاب يسترعي الانظار ويستدعي الانتباه ؛ لا فرق اذا كان الاثر الفني الذي تحدثه منسوجات الفنّ حسناً او سيئاً . فيرون ان « الشعر الذي عليه مسحة من جمال خارجي لاكفى وآثر من شعر يضم اسمى المعاني »[1] والتماثيل العارية فيها من روعة الحسن ما تغلب على القلب ، بينما ترى الملابس تعبث بنضارتها وتذهب برونقها .

فدعاة هذا المذهب يطلقون العنان للطبيعة البشرية دون وازع ولا لجام . ولا يفوت علم المطالع ان الشر اذا القي حبله على غاربه ، عمّ وباله ، وافضى الى اسوأ المغبّات . فهم لا ينظرون الّا الى اللذة ، دون ان يبالوا بما وراء هذه العاجلة ؛ ولا يفكرون ان كل ما على الارض ، حتى الفنّ ، يجب ان يرفع النفوس ويسمو بها الى غايتها العليا .

اجل ان الفن حرّ ، ولكن ضمن نطاق معلوم . يجب ان يكون خاضعاً لسنة الله ، يجب ان يخضع لقواعد خارجة عنه رتبتها علة اعلى واشدّ ضرورة منه . لان المخلوقات العاقلة لها غاية عليها ان تدركها ، وهي كمالها لاجل حياة اسمى لا تنالها الا باستحقاقاتها . فالذين يقصرون غايتهم على حياة الدنيا ، عليهم ان يضعوا غايةً لحياة الانسان ابعد من اللذّة . والحال ان كل شيء ، سواء كان من ذاته او خارجاً عنه ، لا يؤدّي بالانسان الى هذه الغاية ، فهو شرّ ؛ كما ان كل ما يمكننا من ادراكها فهو خير .

. . .

(١) Flaubert

الرسم ١
صورة شرقيّة قديمة للسيدة العذراء محفوظة في دير
طاميش وتاريخها سنة ١٦٠٢
راجع المشرق (٣٧[١٩٣٩] ٥٠٥)

الرسم ٢
عبسة دير سيدة طاميش
راجع المشرق (٢٧[١٩٢٩] ٥٠٨)

نرين ان هذه الشريعة ، من حيث انها تنجم عن غاية الانسان الاخيرة ، هي عامة لا يُستثنى من حكمها انسان . والفنان انسان ، بل هو يتحمل مسؤولية اشدّ من مسؤولية اخوانه في الانسانية ، من حيث ان الفنّ كثيرًا ما يكون مدرجة للزيغ عن الطريق القويم . « ففي كل ضرب منه كما يقول برونتيير (Brunetière) جرثومة للفساد ... اذ ان كل نوع من الفنون ، كي يصل الى الفكر ، لا يقتصر على استعمال الحواسّ بل يتناول اللذات الخاصة بكل منها . فالصورة غرضها لذة حاسة النظر ، والموسيقى لا تكون شجية مطربة الا اذا انس بها السمع ... »

فقول برونتيير لا يخلو من الغلوّ ، لكنه على جانب من الصحة . وليس في الفن جرثومة الفساد ، كما ادّعى ، بل اخطار الوقوع فيه ، اخطار يؤخذ بحبائلها من لا يجعل غايةً للفن الا الفن نفسه . لانه :

١ً في الفن « توسيع لحياتنا » . اذ من غرضه ان يطبع فينا حياة مصنوعاته ، وذلك بتحبيبه الينا تلك الاشياء . فاذا كان الوسط الذي يلقينا فيه الفنان والكاتب غير صالح ، واذا كان الهواء الذي نستنشقه مسموماً ، فارادتنا اعجز من ان تقاوم الخطر . فهي مأخوذة بروعة المصنوع الخارجية . والجزء الحيواني فينا يتغلب ، واهواؤنا تثور ، وليس في وسعنا اذ ذاك ان نكبح جماحها ، لانه كما قال برغسون (Bergson) « ان موضوع الفن يخدّر ما في قوى الانسان من نشاط ، ويطفئنا مجتذبين اليه ، ويسلس قيادنا فنجري بطواعية لكي ننجز المثال الذهني الممثل لنا . »

٢ً « الفن حنان » فان كان الفنان يدفعنا الى حب اشياء غير اهل بمحبتنا ، فاننا نبذل ما في طاقتنا لكي نقترب منها ، لانّ الحب يدفع الى الاقتداء .

٣ً الفن يوجد الفةً بين العقول . فان كانت دعامة هذه الرابطة فساد الخُلق ، وان كانت الغاية التي تجمع هذه القلوب اثيمة شريرة ، فما عساها تكون تلك الجامعة ؟ اعضاؤها يتآلفون لا للنهوض من اوحال الرذيلة بل للتلطخ باقذارها . وكلما كثر عددهم ، ازدادوا تمرّغًا في المخزيات ، وتمادوا في الغي .

ورب معترض يقول: ان بيئة الفن نقية اذ انه يُحدّ «تمثيل الاشياء على وجه افضل مما هي عليه.» لكن هـذا التمثيل من أدعى مروّجات الشرّ اذ يريه في الاعين مزخرفاً منمقاً . فيفرغ الرذيلة في قالب من الرقة ، ويوشحها بابهى الرسوم ، وينتفها بأنق الكلام واعذبه ، ولا يزال يعالجها حتى يحببها الى النفوس . وهي خدعة حرية باسفنا . ان اصحاب هـذا المذهب دنّسوا كلمة (*idéalisation*) المحدَّد بها الفن ، وخدعوا قلوباً طاهرة تصبو من فطرتها الى الجمال ، فحرّضوها على ارواء غليلها من الاشياء السافلة الدنيئة ، بعد ان كانت تتزع الى المطالب السامية الشريفة.

ومن الغرابة ان نرى اناساً يبثون هذه التعاليم ، ويجاهرون بها بلا حياء ، وكاني بهم يجهلون الطبيعة البشرية ولا ينصون النظر في ذلك القول المأثور عن أنكر (Ingres) «انه يوجد اكثر مما يتصور ملاءمة بين الذوق والاخلاق السليمة » ليلقوا نظرة على الاجيال الغابرة فيروا ما احدثته تلك الآراء من المفاعيل السيئة. شخصيات بارزة فقدت حريتها ، وشعوب برمتها أضاعت استقلالها ، لانها لم تُعنَ بامر الاخلاق ، ولست مغالياً . الى اي مغبة يقود الفن اذا لم يُضبط ؟ انه ، ولا مراء ، ينتهي الى الفتور ، الى التخنث ، بحيث لا يسعى الا وراء الملاذ.

لنا مثل الامة اليونانية العريقة في المجد ، فانها ، لما فصلت الفن عن الدين والاخلاق ، تسرّب اليها الانحطاط ودبّت في جسمها عوامل الفساد.

كذلك الايطاليون في القرن السادس عشر ، لما استسلموا الى اساتذة البيان الذين يشتغلون بالشكل الخارجي في فني التمثيل والتصوير ، هرّوا حتى افضى بهم الامر الى درك سافل ، حتى في وسط المسيحية عينها ، وتحت نظر البلاط الروماني.

ونضيف الى شهادة التاريخ الصادقة ، بيّنات النقد المحقّة أن الفنّ ، اذا لم يكبح بلجام الادب ، يُفضي حتماً الى فساد الاخلاق . فيرونتيير يقول : « ان كل صورة من صور الفن ، اذا تركت وشأنها ، كانت خطراً على نقاوة الاخلاق» وزاد على ذلك فويه (Fouillée) قائلاً « ان الادب الفني المحض حقيق بآلهة شيلر (Schiller) المتوطنة جبال الأولمب (Olympe) ، غير

حافلة بمقتضيات الحياة ، مكتنفة بنور الهي على الدوام ، لا بالبشر المائتين الذين في قلوبهم شهوات ، ولهم حاجات عليهم ان يضبطوها بقيود.»[1]

لا تنكر ما في ذلك من المغالاة . اجل ان الفن ، في الحالة التي صوّره بها بعض الغلاة ، قد ينتهي الى تغلّب الشهوات . لكن الفنون بالعموم ليست خطرة الى الحدّ الذي جعلها فيه روسو (Rousseau) . نعم ان روسو يبالغ — كما فعل قبله بوسويه (Bossuet) في مناظرته مع كاقارو (Caffaro) — بزعمه ان الفنون خطر على الاخلاق ، ولقد وُجدت لتوطيد عروش الملوك «وهي تضع على اغلال الحديد تيجاناً من الازهار»[2] ان حب روسو ، الرجل الفطري ، للطبيعة الخالية من كل تصنّع وزخرف يصدّه عن ان يحكم بسداد واصابة . لقد ابى ان يفهم ان الفنّ ، حسب الاصول ، يقود الى الله ، الجمال الخالد ، ومن ثم الى اصلاح الاخلاق . فلو كانت الفنون خطراً على الهيئة الاجتماعية ، لما بسطت الكنيسة عليها حمايتها ونشطت القائمين بها . وليس في وسعي الآن التوسع في الردّ على روسو ، فاجتزئ بما قاله جيلبر (Gilbert) شعراً : «سقوط الفنون يلي ذهاب الاخلاق.»

. . .

ثالثاً — الفن الذي غايته الفنّ فحسب ، الذي يزدري بالآداب ، ينتهي الى هدم نفسه . ولنا شهادة قيمة للشاعر بودلير (Baudelaire) . ففي مقاله عن «المدرسة الوثنية» يُدلي بحجج راهنة فيبين الى اي مدى من الضلال يتدهور الانسان ، اذا عالج الفن كغاية اخيرة له ، وينهي مقاله بهذه الكلمات : «الشغف الشديد بالشكل الخارجي ينتهي الى التشوّش وعدم النظام . فالفنان يصرف قواه كلها الى تلمّس الجمال الظاهري ، غير حافل بالكمال الباطني . فافراط الكلف بالفنّ يحسب كأن لا فن ، لان ما جاوز حدّه جالس ضدّه»[3]

---

(١) Fouillée, *Morale des Idées-Forces*, p 351 - 356.

(٢) *Cf. Le «Discours sur les Sciences et les Arts» de* Rousseau.

(٣) Baudelaire, «*L'Art Romantique*».

او مثلما قال رينوفيه (Renouvier): «الفن الذي لا يُعنى بالادب مطلقاً يجرح الضمير ، ويسبب السآمة ، او يثير الاهواء ، وكل من هاتين الناحيتين يعدم حقيقة اللذة الفنية »

ما هي اللذة الفنية : هي انفعال في القوى المدركة بحيث يصول عليها الدهش ، ثم الحب ، فتندفع الى الاقتداء بالمصنوع الخارجي . فالدهش يتطلب سلاماً مستقراً في النفس ، اعني ان تكون في منجاة من ثورات الشهوات ، فكل ما يحيل بها ويعكر راحتها يكون قبحاً لانه ينازع تأثرات الجمال . وعندما نحلل شعورنا بالجمال نجد ان الركن الاول فيه سكون النفس وطمأنينتها ، فكل ما يقلق راحة النفس ويبلبل سكونها يضعف فيها حاسة التذوق للاشياء الجميلة ، وهي حالة مضادة للفن .

فيلخص مما تقدم ان سيادة الشر على المصنوعات ، او اذا كان فيها ما يثلم نقاوة الضمير ويهيج احساسات فاسدة ، يضعف تذوق لذات الحس اذ تتغلب اللذة الحسية على الشعور الفني وتحل محله كما قال ونكلمان (Winckelmann): « كل ما يثير الاهواء السافلة يؤخر الشعور الفني . حينئذ ليس الجمال الذي يعطف بل اللذة الحسية التي تجتذب »

والاب لونغاي (Longhaye) يقول في كتابه « في النظريات الادبيات » : « ان الشعور بالشر او بالاخطار الادبية يميت في اثر الجمال .»[1]

* * *

وبما ان الفن . الذي غايته الفن ، والذي يثلم الادب ، يكون ضرراً على ذاته ، أوَيجب عليه ان يعظ ويؤدب ؟ ليس الى الوعظ والارشاد يرمي الفن ؛ ولكن يجب ان لا ينتهي الى الاثم ولا يحببه ؛ فلا يعرض على المسارح روايات يمثل فيها الرذيلة على وضح النهار دون ان يشير الى الهوة السحيقة التي تفضي اليها ، ولا ان يمثل مشاهد بذيئة او تحدو الى الفساد من ذاتها ، كتمثال

(١) P. Longhaye : *Théorie des Belles-Lettres*, p. 83.

الزهرة الذي نحته احد النقاشين مدنساً الآية الربانية : « تعالوا اليَّ » . لكن قلما نجد لهذه مثلاً في الفن السامي . وما يتكرر وقوعه غالباً لا يدفع الى الفساد مباشرة ، لكن عن طريق ابعد ، وهي تمثيل اشياء غير لائقة تلفظها الأعين الطاهرة . وهكذا غدت الرموز تصورات منسوبة في جميع الحالات على زيٍّ خلاعي واحد .

ورب معترض يقول انه من الضروري ان تمثل الحياة مثلما هي في الحقيقة . فعليه نجيب : أأنتم مؤرخون علماء أم فنيون . ان غاية المؤرخ والعالم هي الحقيقة المجردة وكشف النقاب عنها ، اما الفنان فهدفه بيان ما فيها من جمال ورونق معجب . فعليه ان ينتقي ما حسن وراق ، وكل ما قبح فهو قبيح ، عليه اطراحه . ولربما يكون الجمال الخارجي كاملاً ، لكن الشكل البادي ليس كل شيء في المصنوع . فالمثال الذهني وما يلهم به الفنان لهما مقام ممتاز في شعورنا ، فاذا كان المثال الذهني غير قويم والهام الفنان ليس بصالح ، نتج عن ذلك تبليل ، ففاتته صفة جوهرية من صفات الحسن .

وهذه النتة « بما ان الفن مستعبد للانسان ، فمن اللازم ان يخضع لشريعة الانسان اي للناموس الادبي » لا تعني ان الفن يترتب عليه ان يحقق الادب عملياً بالوعظ والارشاد . فالادب ليس غاية الفن ، بل هو احد قواعده ومن حدوده . فاذا انجزت الصناعة غرضها بان راعت الآداب من جهة ، واستوفت شرائط الجمال من الجهة الاخرى ، فقد انتت الغاية المطلوبة .

وما ذكرناه عن غاية الفن لا يمنع الفنان ان يقصد الى التأديب . ومن الممكن ان لا تكتسب المصنوعات جمالاً اوفر ، لكنها تحرز شيئاً آخر ، وهو ان تجمع الجمال مع الخير . وهنا يجب عدم الافراط بحيث لا يحوّل فنّ التمثيل مثلاً الى منبر خطابة . فالكاتب التمثيلي لا يتحرى الذود عن الحقائق ، والمصوّر والموسيقي والمشخص لا يحصرون فنهم في موادّ العبادة . فغاية التأديب تقيد حرية التبصر ، وقد قال فاغيه (Faguet) : « من عمد في مصنوعاته الى شرح حقيقة اخلاقية ، سبب عدم النجاح في فنه » كما حصل لشاتوبريان (Chateaubriand) في كتابه « الشهداء = *Les Martyrs* » فقد بذل جهده في

ان يبرهن عن تفوّق الخوارق (*merveilleux*) المسيحية على الخوارق الوثنية . ولكي يدلي بحجج يعدّها متينة ضحّى بجمالات حقيقية موجودة في العبادة الوثنية ، وطمس بعض الشخصيات مثل (*Démodocus et Cymodycée*) . وبارادته ان يقابل بين الخوارق المسيحية والخوارق الوثنية ، وضع من الجهة الواحدة الله تعالى وملائكته ، ومن الجهة الاخرى القوى الجهنمية ونذرًا من الآلهة الوثنية . فجاء بمقابلة باردة مسهبة جعلت سياق الرواية غير ملتحم .

فاذًا خير الاشياء اوسطها . واذا اضطر الفنان ان يمثل في المسرح اشخاصاً لهم اهواء ، او يصوّر امورًا ليست فاسدة بذاتها ولكنها ، لبعض الاسباب ، لا تخلو من خطر على بعض الانفس السليمة ، فيقتضي بذل الجهد في انقاص الخطر وتقليل تأثيره . فالكاتب التمثيلي عليه ان يقرن الجرائم بتوبيخ الضمير ولوم النفس الامارة بالسوء ؛ ولا يني عن تحبيب الطباع الشريفة والاخلاق العالية . اما من جهة فن التصوير ، افلا يوجد من طريق لرسم الهيئة او بعض الكيفيات بحيث يتناقص اثر الشر ؟

وتأييدًا لما بسطنا عن علاقة الفن بالاخلاق نورد كلمةً لبعض مشاهير الرجال من فلاسفة وادباء :

يؤخذ من خواطر افلاطون وارسطو « ان غرض الفن الوحيد هو التثقيف ونشر الآداب . » وافلاطون كان يرى الفنون التي ترمي الى احداث اللذة خطرًا ، وقد نفاها من جمهوريته .

وبعدهما بلوتينوس (Plotin) يقول « ان المصنوعات الفنية تكون جميلة بمقدار ما تتجلى فيها الحقيقة . لهذا السبب لا يلتزم الفنان ان ينقل الطبيعة الحاسة التي هي مُثالة لطبيعة اعلى ، لكنه يطمح الى مطالب سامية ويجتهد ان يمثل في مصنوعاته جوهر الاشياء التي هي وراء العالم الحسي .... وهكذا ينقي الاشياء الحسية من نقائصها . »[1]

ويقول القديس توما : « اذا كان الفن يصنع اشياء يتعذّر على البشر

---

(1) *Revue Néo-Scolastique, mai 1909, p. 240 et 242-243.*

استعمالها دون اثم ، فبتكر هذه الاشياء يخطي لانه يقدّم الى غيره مباشرة سبب الشرّ القريب ، كالذي ينحت تماثيل لعبدة الاوثان . على انه يسوغ استعمال الفنون التي يمكن التصرف بنتائجها خيرًا او شرًّا . اما الفنون التي يغلب ان تفضي الى الشر ، وان كانت سائغة ، فالاولى اطراحها .»[1]

وفي منتصف القرن السابع عشر ، نرى بوسوه يحظّر شهود المراسح . لا ننكر انه غالى في تحظيره ، لكنه كان على جانب من الحق . وبوالو (Boileau) يعيب الكتاب الذين يجلون الفساد فيحببونه لقرائهم[2] .

ولا اعترَض لما قاله روسّو عن تأثير الفنّ السيء . ففي كلامه شيء من الاغراق .

وفي القرن التاسع عشر كتبت جورج ساند (G. Sand) « ان على الكاتب واجبات . فالفن الذي غايته الفنّ كلمة جوفاء لا معنى لها ، ولكن الفن للحق والخير والجمال . ذلك هو المذهب الذي افتش عنه .»[3] وبكلمة اصرح يقول تين (Taine) « ان المصنوعة التي تمثل سجية كريمة اسمى من التي تمثل خلقًا ضارًا . . . ومجرّد رؤية هذه النفوس الصغيرة العرجاء يولّد في نفس القارئ شعورًا غامضًا من تعب وسأم حتى من غيظ وكراهة .»[4]

وتولستوي (Tolstoï) في كتابه « ما هو الفن ؟ » يظهر اشدّ صرامة من بوسوه في نقمته على المسارح وعلى الفنون التي غايتها اللذة .

واقضل ما يؤيد ما اتينا على وصفه ، ويجعله خاتمةً لهذا المقال هو روح تعليم المسيح . فالفن الذي غايته الفنّ يرمي الى تمجيد الجسد وتعظيم الاهواء .

---

(١) *Sum Théol., II-II. q.169, a. 2, ad 1.*

(٢) . . . *Ces dangereux auteurs*
Qui de l'honneur, en vers, infâmes déserteurs,
Trahissant la vertu sur un papier coupable,
Aux yeux de leurs lecteurs rendent le vice aimable.
Art Poétique, chant. IV.

(٣ و ٤) *Cf.* Brunetière : *Discours du Combat, I vol. p. 75.*

والمسيح اعلن ان الجسد هو العدوّ الذي يجب ان تحاربه . لعنه لانه عيتنا ، وما زال يستدرجه من عذاب الى عذاب ومن اهانة الى اهانة حتى علقه على الصليب . وانتم ايها الفنانون قد اتخذتموه الهاً لكم ، وغايتكم القصوى . فهو الكل من فنكم كما هو الكل من حياتكم . وهو يملي عليكم ارادته ويستحكم بكم فيطلق يدكم في تصوير انتصاراته ، فلمجده كرستم قلمكم . اهذا عمل اجتماعي مسيحي ؟

اذا كان الشاب يخرج من مدارسكم وقاعاتكم ، وقد الفت عيونه المشاهد الدنسة ، فرفرفت على اجفانه ، اثناء الليل ، احلام السوء واشبع خياله بصور مستهجنة وافسد قلبه مما رأى وسمع ؛ اذا كنتم تلقنون العذراء الطاهرة والزوجة المصونة اسرار الرذيلة والفساد ؛ اذا كانت اغانيكم الخلاعية تطنطن في آذان الشعب الذي قد علت وجهه حمرة الخجل لدى سماعها لاول مرة ؛ افتسمون لاجل الخير ؟

انكم تلتم منحاً من الله بواسطتها تحوزون نفوذاً عظيماً ، وهذا النفوذ تستعملونه حتى تحاربوا المحسن اليكم ، وتجعلوا وجهة القلوب حباً فاسداً لا ينتج فرحاً في العاجلة ولا في الآجلة .

« الويل لمن تقع الشكوك عن يده ! » تذكروا دائماً آية المعلم الالهي ، ردّدوها اثناء صوغ شعركم وتصوير رسومكم . انّ قريحتكم تتقلكم براجبات . اذا كنتم لا تريدون هداية الناس الى سنن الفضيلة ، فلا تعلموهم سبل الرذيلة .